# القيم المعاصرة
## في رواية « الخندق الغميق »

بقلم دوغلاس ماغراث

في الشهر الماضي ناقش المستعرب الاميركي دوغلاس ماغراث رسالة ماجستير في الجامعة الاميركية ببيروت عن رواية الدكتور سهيل ادريس « الخندق الغميق » التي ترجمها الى اللغة الانكليزية . وكان الاساتذة المشرفون على الرسالة هم الدكاترة محمد يوسف نجم ومحمود الفول ونديم نعيمه .
وقد فاز المستعرب ماغراث بشهادة الماجستير بدرجة ممتازة .
وتنشر « الآداب » فيما يلي مقدمة الرسالة مترجمة بقلمه :

في رواية « الخندق الغميق » فحص سهيل ادريس أهم قيم المجتمع الشرقي التقليدي المتمثله في مدينة بيروت حوالي الحرب العالميه الثانيه ، وركز اهتمامه على بطله « سامي » الذي حاول أن يؤوّل هذه القيم تأويلا جديدا في نور التجدد والتثقف الغربي . فرسم صورة حيه للصراعات التي يواجهها أهل الشرق العربي ، صراعات بين الشرق والغرب ، والتقليد والتجدد ، والحياة الدينية والحياة المدنيه . وقد مثلت حياة سامي تطورا من الخضوع للتقاليد ، الى التمرد التام على مجتمعه وتقاليد هذا المجتمع . فاصطدمت الحياة التقليدية التي عاشها الاب بالحياة الحديثة التي اختبرها سامي ، حياة مصدرها المدنية الغربية والتثقف الآتي من الغرب . وقد وقع سامي في مأزق : هل يختار هذه الحياة الحديثة المعاصرة ويرفض تراثه الشرقي الاسلامي ؟ أم يعود الى هذه الحياة المتدينة في المعهد ؟ لقد واجه هذه المسألة ووجد مخرجا حين اتخذ الثقافة الغربية نموذجا لحياته من غير ان يرفض تراثه الشرقي الاسلامي ، بل التزم بالدين والايمان ، وكان الدين مع القرآن برهانا لتأويله الجديد ، فاهتم بأربعة مبادىء أساسية في مجتمعه ، وهي التربية ، والاسرة ، وحرية المرأة ، والعقلية الغربية مع التفكير الجديد .

تتطلب الحياة التقليدية كما اختبرها الاب نوعا خاصا من التربية، اي تربية دينية في معهد ديني . ولكن الحياة المعاصرة تتطلب تربية معاصرة ، فلم يرد سامي أولا ان يترك المشيخة لانه كان يلتزم بالتقاليد التي أعطت الشيخ منصبا محترما في المجتمع ، ولكنه مع مرور السنين أيقن ان للتربية الحديثة الغربية فوائد لا غنى عنها في العالم المعاصر ، فحاول أن يجد حلا وسطا ، اذ سمى نفسه شيخا « مودرن » لانه كان يدرس القليل من الثقافة الغربية عبر اللغة الفرنسية وأدبها . وجعل يقرأ أكثر فأكثر خارج الصف وكانت النتيجة ان اتجه نحو الغرب .

وهكذا قرر ترك المعهد ومتابعة تربية مدنية لانه فطن الى انه لن يستفيد من الدراسات الدينية لان ميله كان الى الادب الغربي والكتابة والتاليف ، وكلها موضوعات لا وجود لها في المعهد .

هنا فحص المؤلف مشكلة وجود نوعين من التربية في مجتمعه ، تربية دينية يمثلها الكتّاب والمعهد الديني ، وتربية غربية معاصرة تمثلها المدرسة المدنية والكلية . وقد ضاق سامي ذرعا بالجمود والتقليد الاعمى في المعهد . وأراد ان يبتعد عن هذا الجو « وأخذ تعلقه بالكتاب الذي كان يختاره هو نفسه يشتد ويعمق بقدر ما بدأ يملّ الكتاب الذي كانوا يختارونه للدرس » (١) .

لم تكن طريقة التعليم التقليديه تسمح بالسؤال والمناقشة الحرة ، فكان المعلم الشيخ يجيب اذا سئل « ولا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم » (٢) أو « يا بني ، هكذا أنزل الشارع » (٣) .

وكانت المواد جافة صعبة الفهم غير مشوقة : « على انه كان يضيق ذرعا بدرس المنطق ، فقد كان يوشك ألا يفهم منه شيئا وكان المدرس يحفظه فيردده عليه أحكاما وقواعد جافة لا يمثل لها بشيء من حياتهم » (٤) .

وهذا الشعور شبيه بشعور طه حسين الذي درس مثله في معهد تقليدي ، حين يقول : « واشتد ضيق الفتى بالازهر وأهله وبحياته في القاهرة غارقا فيما لا يحب » (٥) .

ان الاسلام يشجع التربية ، وقد خلقت هذه المعاهد لهذه الحاجة وخدمت المجتمع الاسلامي في مختلف عهوده . كان للشيخ منصب عال محترم . وكان الشيخ مثل الاب الذي يقرأ ويجوّد ويذكر ، يحترمه المجتمع الى حد بعيد . وكان الاب يريد ان يسلك سامي مسلكه . ولكن الفتى رأى ان مستقبله مربوط بالغرب .

واتخذ سهيل ادريس موقف محمد عبده حين أراد لسامي أن يدرس الموضوعات الغربية . واتحق ان الاسلام الحقيقي يشجع العقل والعلم، فعلى المسلم ان يدرس الموضوعات المعاصرة ، وهو يستطيع فعل ذلك ويحافظ على ثقافته وتراثه الاسلامي في الوقت نفسه .

وكذلك نظر المؤلف الى قيمة الاسرة في « الخندق الغميق » . كان الاب فيما مضى رئيس الاسرة الذي لا يخالف ، لان كلمته هي القانون . ولكن الاب أخذ يفقد سلطته شيئا فشيئا وأصبح الابناء والام يناقشونه ، لانهم تأثروا بهذه النزعة من الغرب ـ الفردية والحقوق الذاتية . وثار الاب محاولا الحفاظ على موقفه التقليدي . « ولم يكن أبوه بحاجة الى اكثر من هذا حتى ينفجر غاضبا حانقا يصب لعناته عليهم وعلى الاولاد جميعا ويعلن انه أصبح لا يطيق الحياة وسط هؤلاء الاولاد العصاة » (٦) .

---

(١) الخندق الغميق ، ص ٤٠ .

(٢) الخندق الغميق ، ص ٤٢ .
(٣) الخندق الغميق ، ص ٤٢ .
(٤) الخندق الغميق ، ص ٤١ .
(٥) الايام ، ص ٢٠١ .
(٦) الخندق الغميق ، ص ١٣٣ .

وهكذا اختل توازن الاسرة ، واصبح كل فرد مسؤولا عن نفسه اولا لا مسؤولا عن الاسرة مسؤولية مشتركة . ولما مات الاب كان مونه رمزا لموت هذه المبادىء والتقاليد التي قد اعطت الاب سلطته الكاملة على كل أفراد الاسرة على حساب الفردية والحرية .

وهناك ناحية أخرى من الصراع بين الشرق والغرب هي حالة المرأة وتحريرها . وقد تناول سهيل ادريس حالة ثلاث نساء هن هدى وسميا والام .

كان المفروض على هدى ان تلبس الحجاب وتنعزل عن أنظار الرجال ، ولما اكتشف الاب انها كانت تجتمع « برفيق » غضب ودارت مناقشة حادة بينه وبين أخيها سامي الذي وقف الى جانبها ، فرفض انعزال أخته وايد حريتها . كان سامي يعتقد بأن المرأة حرة في الاسلام، فيجابهه الاب قائلا لاخته : « ألا يكفي أخاك انه قد ضيق الدين حتى اصبح يحلل المحرمات ؟ » (٧) .

وأجابه سامي : « انني لا أود ان احلل محرماً ، ولكني لا أظن ان هذا حرام .

ودار بينهما نقاش ، وعبثا حاول أن يقنع أباه بأن ليس في القرآن ما يشير الى تحريم ذلك » (٨) . وكان ان التجأ الاب الى الحديث فاستشهد بـ « من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه » (٩) وكذلك « أو لم تسمع بالحديث الشريف ، ما خلا رجل بامرأة الا دخل الشيطان ثالثهما » (١٠) .

هنا يرى القارىء تأثر سامي بالغرب واضحا ، وكذلك التزام الاب بالتقاليد والعادات الشرقية التي حرمت المرأة حريتها . فهذه العادات حالت بين سامي وسميا ، وحبه لها كان يزرع بذور الثورة في قلبه وهو تلميذ في المشيخة . فبدأ الصراع اذ كان في المصيف مع أسرته .

« ولم يكن يتوقع حين طرقوا بابهم في اليوم التالي ان ينقسموا قسمين ، فتدخل هي وأمها وأختها غرفة « الدار » حيث استقبلتهن أمه وأخته ، ويدخل أبوها وأخوها غرفة الاستقبال حيث استقبلهما أبوه » (١١) .

هنا واجه سامي التقاليد التي منعت اجتماع النساء مع الرجال، وحاول ان يحرر سميا من هذه التقاليد ولكنها خضعت لرغبة اسرتها وتزوجت ابن عمها تاركة سامي وحيدا .

غير ان سامي نجح في تحرير أخته من قيود الحجاب والانعزال ، وكذلك التزم قيود الاسلام لان القرآن لم يفرض الانعزال على النساء ما عدا زوجات النبي اللواتي كان لهن موقف خاص في المجتمع آنذاك . « والحق ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لا للتعبد ولا للادب ، بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعده » (١٢) .

ان عزلة المرأة في المجتمع الاسلامي المعاصر أمر ضار لانه يمنعها من ان تكون انسانا كاملا ، من اجل ذلك تحررت هدى وسفرت لان الحجاب غير مناسب في المجتمع الحديث ، واستطاعت هدى ايضا ان تختار « رفيق » شريكا لحياتها طباقا لامها التي تزوجت رجلا اختارته الاسرة وقالت : « وقد رفضت ان أتزوجه بادىء الامر لكن أمي أجبرتني على ذلك وفسرتني فسرا ، ولقد رضيت بمصيري واستسلمت للقدر » (١٣) . فمن الواضح هنا أن سهيل ادريس يدعو الى تحرير المرأة والى اعطائها حق الاختيار في الزواج .

ومثله دعت ليلى بعلبكي الى حرية المرأة وخاصة حريتها من قيود الاسرة ، فناقشت « لينا » ـ بطلة « أنا أحيا » ـ أمها وطالبت بحرية فردية في تصرفها . فقالت الام : « من هو الذي تجالسينه ؟ انه يلتهي بك ، انه ...

أخرستها حانقة ، انه .. انه .. ما دخلك انت بمشاكلي ؟ » .

استمرت المناقشة وقالت الام : « أنت ، متى كانت الفتاة في أسرتنا تجوب الشوارع .. متى كانت تجالس الرجال ... تدخن وعلى مرأى من أمها ، قولي ، ما الدافع لهذا التمرد وهذا الشذوذ ؟ » (١٤)

ان مؤلف « الخندق العميق » يدعو المرأة الى المطالبة بحقوقها ، لانها في المجتمع الخاضع للتقاليد لا تملك حقوقا بالرغم من الحقوق التي أعطاها اياها الاسلام . فبمرور القرون أخذ الرجل يسيطر على المرأة ويحتقرها . مثلا قال الاب « صدق النبي الكريم : النساء ناقصات عقل ودين » (١٥) .

ونوع آخر من الاحتقار تعدد الزوجات ، « وبديهي ان في تعدد الزوجات احتقارا شديداً للمرأة لانك لا تجد امرأة ترضى ان تشاركها في زوجها امرأة اخرى ، كما انك لا تجد رجلا يقبل ان يشاركه غيره في محبة امرأته » (١٦) .

فلهذه الاسباب ثارت أم مع أولادها حين تزوج الاب عليها ، واصطدمت هذه النزعة الجديدة التي اعطت المرأة حقوقها بتقاليد الاب . فقالت الام وهي تهاجم « من أجل هذا تغيبت طوال هذين الاسبوعين في حلب ، وأنت زعم ان لديك تجارة ... أجل ... لقد كنت تتاجر حقا ، ولكن بالنساء ، كنت تتاجر بي أنا ، ارضاء لشهوتك الجامحة ، أنت أيها الشيخ التقي النقي » (١٧) .

اصطدم الشرق والغرب في هذه النقطة من القصة ، فحاول الاب ان يدفع عن حقه في التزوج ثانية طبقا للتقاليد الشرقية ، ولكن سامي عارضه على اساس انه لن يعدل مع اكثر من زوجة واحدة . واستشهد الجانبان القرآن برهانا .

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » (١٨) .

حاول الاب أن يثبت موقفه حسب هذه الآية ، واتخذ سامي نفس الآية وشرحها في ضوء جديد اذ قال ان الرجل لا يستطيع ان يعدل مع اكثر من زوجة . وهذا الشرح المعاصر نتيجة لثقافة سامي

---

( ٧ ) الخندق العميق ، ص ١٢٤ .
( ٨ ) الخندق العميق ، ص ١٢٥ .
( ٩ ) الخندق العميق ، ص ١٢٥ .
( ١٠ ) الخندق العميق ، ص ١٢٥ .
( ١١ ) الخندق العميق ، ص ٦٢ .
( ١٢ ) قاسم أمين ، تحرير المرأة ، ص ٧٢ .
( ١٣ ) الخندق العميق ، ص ١٣ .
( ١٤ ) ليلى بعلبكي ، أنا أحيا ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .
( ١٥ ) الخندق العميق ، ص ٣٠ .
( ١٦ ) قاسم امين « تحرير المرأة » ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .
( ١٧ ) الخندق العميق ، ص ١٥٣ .
( ١٨ ) القرآن ، سورة النساء ، آية ٢ .

الغربية . ويراه القارىء ما زال يحب الاسلام ويعتمد على ايمـــانه الديني ، فأعطى الدين معنى وتأويلا جديدين معاصرين . فأجبر الاب أن يطلق زوجته الجديدة ، وخلعت أخته هدى الحجاب ، ونجح سامي في معركته مع الجمود والتقليد الاعمى : عنصران لا يناسبان الحيـــاة المعـاصرة .

وقيمة أخرى تناولها المؤلف هي التفكير الذهني الغربي في المجتمع الشرقي . فلقد واجه المجتمع الاسلامي فيضانا من الافكار والمفاهيـــم المستوردة من الغرب . واحدى هذه الظواهر هي الادب الاجنبي وتأثيره على المثقفين . وقد تثقف سامي بالادب الفرنسي وهو في المعهـــد ، ووجده نافذة نظر منها من عالمه الضيق الى عالم اوسع ، وارتوى من منهل الثقافة الغربية ، وكان هذا الادب العنصر الذي غيّر ســـامي ووجهه نحو الغرب وأعطاه تفكيرا ذهنيا جديدا أوسع من حدود هـــذه المشيخة . يقول المؤلف : « أقبل اقبالا شديدا على مطالعة الروايـات الفرنسية » (١٩) .

هنا يرى القارىء كيف تأثرت الطبقات المثقفة بالثقافة الفرنسية وكيف نبتت العادات الفرنسية . وساعد سامي على ادخال هذه الثقافة الفرنسية الى المجتمع العربي لانه كان يترجم الروايات الفرنسية الـى اللغة العربية .

وكان طه حسين ايضا يريد ادخال الثقافة الغربية الى المجتمـع العربي ولكنه ذهب الى حدّ أبعد من سهيل ادريس اذ قال : « نسير سيرة الاوروبيين ونسلك طريقتهم لنكون لهم اندادا ، لنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها وما يحب منهـــا ومـا يكره » (٢٠) .

وقد سار سهيل ادريس سيرة الاوروبيين في « الحي اللاتيني » فاتخذ البطل العادات الفرنسية حتى عاشر صديقته « جانين » ولكنـه رفضها في النهاية ورجع الى الشرق .

اما توفيق الحكيم في « عصفور من الشرق » فيقف موقفا معارضا للغرب لان الايمان ينقصه ، فالتزم الشرق مع ايمانه . فقال « نعم ، يخيل اليّ ان مثل هذا الايمان لا يمكن ان يعرفـــه الغرب اليوم . ان الشرق اليوم أعطى الغرب هذه الاديان » (٢١) . وكذلك رأى المدنيـة الغربية سطحية « وادرك من فوره معنى مجتسما تكلمة الحضارة الغربية الكبرى التي بسطت جناحيها على العالم ، نعم ، ما كل هذا البـذخ والاغراق في الترف الى حدّ الكفر والفجور والاستهتار » (٢٢) .

لقد رفض توفيق الحكيم الغرب ، ودعا طه حسين الى اتخـاذ كل عادات الغرب ، ووجد سهيل ادريس حلا وسطا اذ دعا الى شرح جديد للعادات والاساليب القديمة واتخذ تفكيرا ذهنيا غربيا مـــع الحفاظ على تراثه الشرقي . ويمثل سامي في رأيي امل المستقبل لانه رمز رفض السيىء في المجتمع والتقدم الى الخير . وقد أظهر المؤلف القارىء على الطريقة التي يستطيع الاسلام بها ان يكون مفتاح التقدم لو فهم وشرح على ما يجب ان يفهم ويشرح ، حرا من التقـــاليد ومتقدما الى مستقبل أفضل حيث يكون التقدم تاج العرب الحقيقي ، وقد تقدم سامي في الجزء الاخير من الثلاثية في روايه « امابعنـــا التي تحترق » وانهى هذا الصراع في نفسه اذ تزوج « الهام » التي مثلت قسما من الشرق وقسما من الغرب والتي ألهمته الهاما ايجابيـا في متابعة انطلاقه الادبي .

**دوغلاس ماغراث**

---

( ١٩ ) الخندق الغميق ، ص ٩٠ .
( ٢٠ ) طه حسين ، مستقبل الثقافة ، ص ٤٥ .
( ٢١ ) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ١٦٤ .
( ٢٢ ) توفيق الحكيم ، عصفور من الشرق ، ص ٢٣ .


## كتب عقائدية وفكريـــة

### من منشورات دار الآداب

| | | | |
|---|---|---|---|
| الثقافة والثـــورة | محمود امين العالم | ثورة في الثورة | ريجي دوبريه |
| ماركيوز اوفلسفة الطريق المسدود | محمود امين العالم | دفاعا عـن الثوريـــة | ريجي دوبريه |
| ادب المقاومة في فلسطين المحتلة | غسان كنفـاني | القوة السوداء | ستوكلي كارمايكل |
| هيا الى الثـورة | جيري روبين | الوحدة العربية آتية | ارنولد توينبي |
| النشاط الجنسي وصراع الطبقات | رايموت رايش | التحدي الصهيوني | جاك دومال — ماري لوروا |
| الوجه الاخر لامريكا | ميكائيل هارنفتون | جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة | « « |
| حرب المقاومة الشعبية | الجنرال جياب | الارهابيون والفدائيون | رولان غوشيه |
| قصة المقاومة الفيتنامية | الجنرال جياب | اقتراح دولة فلسطين | احمد بهاءالدين |
| الكفاح المسلح | دوغلاس هايد | الكواكبي المفكر الثائر | نوربير تابييرو |
| | | عاجلا او آجلا ستزول اسرائيل | ترجمة ريمون نشاطي |

**دار الاداب ص ب ٤١٢٣ بيروت**